الحدث في نصوص خالد أبو العلا

مجموعة «أنساها الصمت مشاكستي

عن مؤسسة عبد القادر الحسيني في مصر صدر للشاعر خالد ابو العلا مجموعته الموسومة «أنساها الصمت مشاكستي «لسنة 2015 م، هذه المجموعة تركز في ثناياها «الحدث الشعري» الذي يعد ركنا من اركان الشعرية كما تضمنت بناءً فنيا يعبر عن إمكانيات شعرية كبيرة .

نقصد بالحدث التزام النص بحدث معين من بدايته وحتى النهاية – سواء أكانت قصيدة كلاسيكية أم نص حديث كما هو في النصوص النثرية التي تشكل بنية لغوية وموضوعية متكاملة وتمثل بجلاء قدرة الشاعر على رسم صوره الشعرية بألوان زاهية تستجلب المتلقي بل تستدعيه بقوة ليتابع قراءتها .

إن ثمة تحول زاد الامر تعقيدا واستدعى تحولا آخر في منهج قراءة النص، وعليه فإن قراءة النصوص المكثفة الواعية التي تزخر بالصور الجمالية تتطلب استحضار آليات القراءة الحديثة أيضا يقول أبو العلا:

تخرج من عرس النظرات

على عجلات حربية

تلوي أعناق الطرقات بمصفحة تعرف وجهتها...ص8

النص يمثل وحدة تركيبية وسياقية مستقلة أطلقها الشاعر بمعزل عن متغيرات المحيط رغم تضمين النص ألفاظ توحي إلى أجواء مرتبكة إلا أنها ابتعدت تماما عن المحيط العام واختصت بالشاعر وحسب، يقول الناقد محمود الربيعي وهو من أكثر النقاد استماتةً في الدفاع عن استقلالية النص الأدبي، الذي يصبح لديه عقيدة راسخة مستقلة، «تتلخص عقيدتي النقدية في استقلال العمل الأدبي عن كل ظرف من ظروف تكوينه، وبخاصة ما يتصل بالظروف السياسية والاجتماعية، إنني أؤمن بأن العمل الأدبي نشاطٌ بشري حيوي كامل في ذاته، مستقل بنفسه، له أصالته وقدرته التوجيهية المستقلة للحياة، وأدين بأن العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقةُ تفاعل حيوي لا علاقة فعل ورد فعل، أو علاقة صورة منعكسة في مرآة .

ومن هذا القول الذي يمثل جانبا من حقيقة مضمون النص أن الذاتي الذي تجرد عن الانفعال بالمحيط وسجّل للذات السبق هو الذي يستمر وقتا طويلا في ذاكرة المتلقي لانه ابتعد عن الآني الزائل، وانتمى للذاتي المتصل بانفعالات الإنسان واستمرارية التجدد للفعل بمعنى لم يشكل النص ردة فعل على فعل سابق.

«تخرج من عرس النظرات» تركيب فيه انزياح كبير يدل على المحتوى الذاتي الذي يتعلق بالشاعر بعيدا عن محيطه ومتغيراته اللحظية .

«تلوي أعناق الطرقات بمصفحة» فلا للدروب أعناق ولا للعين مصفحة إلا أن اللفظ ارتبط بوثاقة مع سابقه معبرا عن موضوع مستقل تمثل بنقطة انطلاقه انفعالات الشاعر دون محيطه .

وهكذا فالانزياح في النص أعلاه هو خروج عن المألوف والمعتاد، وتجاوُزٌ للسائد والمتعارف عليه والعادي، وهو في الوقت نفسه إضافةٌ جمالية يمارِسها المُبدِع لنقل تجرِبته الشعورية للمتلقي والتأثير فيه، ومِن ذلك لا يُعَد أيُّ خروج عن المألوف وتجاوُزٍ للسائد وخرقٍ للنظام انزياحًا إلا إذا حقَّق قيمةً جمالية وتعبيرية «عُرس النظرات» ليس للنظرات عرس وهو الخروج عن المألوف.

وفي نص آخر:

شواخص تفردت بموتها

وعلمها بأنك اصطفيتها

من الركام واحتسيتها

من الخلائق المعلمة / شهيدة وشاهدة

قتيلة وقاتلة / تمنعت عن الحضور ص45

الشَّخصُ والشاخص(عند الفلاسفة): الذاتُ الواعية لكيانها المستقلةُ في إرادتها، ومنه الشّخصُ الأخلاقيّ، وهو مَنْ توافَرَت فيه صفاتٌ تؤهِّلُه للمشاركة العقليّة والأخلاقية في مجتمع إنسانيّ والجمع: أشخاصٌ، وشُخُوصٌ وشواخص.

تمثل الاستعارة عماد هذا النوع من الانزياح، ونعني بها هنا الاستعارة المفردة حصرا تلك التي تقوم على كلمة واحدة، «تستعمل بمعنى مشابه لمعناها الأصلي ومختلف عنه» ويقصد به كذلك إعطاء دلالة مجازية للفظة، حيث يتم فيها استبدال المعنى الحرفي المعجمي للكلمة بالمعنى المجازي الإيحائي فيتم التحول من المدلول الأول إلى المدلول الثاني، أي من «المعنى المفهومي إلى المعنى الانفعالي» حيث يتم فيها خرق قوانين اللغة وفي الوقت نفسه تمثل الدور الإيحائي، حيث يقوم فيه المتلقي بإعادة الملائمة والمعقولية للخطاب الشعري.

«شهيدة وشاهدة، قتيلة وقاتلة «المعنى مستل من ذات اللفظ لكنه مشتق منه . والدلالة لكل لفظ مجازية «قتيلة وبذات الوقت قاتلة «و«شهيدة وهي كذلك شاهدة «تلاعب ذكي بالتركيب اللفظي .

فالشاعر هنا على حد قول كوهن شاعر «بقوله لا تفكيره وإحساسه، وهو خالق كلمات وليس خالق أفكار، وعبقريته إنما ترجع إلى إبداعه

اللغوي».يبدو أن هذا الكلام لا ينبغي أن يؤخذ على حرفيته، فيظن بأن من طبيعة الشعر أن يخلو من الفكرة لأن مثل هذا الظن هو من قبيل المغالطة التي يدفعها تمثيل كوهن لفكرته السابقة بقصائد ثلاث: البحيرة «لا مرتين» وحزن أو لا مبيو «لهيجو» والذكرى «لموسيه» فكلها تقول شيئا واحدا غير أن كل واحدة منها تقول بطريقة جديدة في تراكيب كلامية جديدة خاصة تدوم في الذاكرة، إذ فيها يكمن الجمال، وعليه يمكن القول:

أن المراد ب» قتيلة» هو ليس المعنى بـ «قاتلة»وهنا يكمن سر جمالية الانزياح التركيبي للجملة الشعرية المفردة ذاتها والجمالية أن يغير من طبيعة المعنى نفسه، وأن ترافقه دلالات جديدة ما كان لها أن تكون لولا التركيب الجديد.

ومهما يكن من أمر فإن الانزياحات التركيبية في الفن الشعري في شعر ابو العلا تتمثل أكثر في شيء التقديم والتأخير، ومن المعروف أن في لغة بنيات نحوية ومطردة وعليها يسير الكلام وهذا ما جاءت عليه معظم قصائد المجموعة .

ولنتابع قول الشاعر:

فاضرب بعصاك البحر القادم

من عينيها الى صحراء الجسد

المتحجر في معبدها

اخرج أصدافك وتمدد في قاع الليل غريقا ... ص62

نلحظ هنا تركيب العبارة الأدبية عامة حين تكاد تخلو كلمات هذين الأخيرين أفرادا وتركيبا من كل ميزة أو قيم جمالية، ويتبين أن الشاعر يمتلك القدرة على تشكيل اللغة جماليا بما يتجاوز إطار المألوفات، وما يجعل التنبؤ بالذي سيسلكه أمرا غير ممكن ومن شأن هذا إذن أن يجعل متلقي الشعر في انتظار دائم لتشكيل جديد، أي هذا التقديم ما يستدعي إلى الذهن مشكلة على الدوام محور خلاف أو اختلاف والمعنى بالمشكلة مشكلة اللفظ والمعنى(فاضرب بعصاك ...»و» اخرج أصدافك وتمدد...»

وعني عن البيان أن مرونة التركيب في تلك التي من النوع الأول أكبر من تلك التي في النوع الثاني، وذلك من شأن الإعراب أن يسهم في تبين الدلالة وإن اختلفت مواقع أجزاء الجملة تقديما أو تأخيرا، وهذا يعني أن الشاعر كان ذكيا في استعمال اللفظ دون أن يحدث لبسا أو إخلالا بالدلالة، بل إن هذا الغنى من التراكيب لهو ميزة تجعل المبدع أكثر وفاء لأداء ما تود النفس أداءه. وأخيرا إن النظرة الأخيرة بأن النظرة الكلية الشاملة إلى النص من شأنها أن تكشف عن ظواهر

غير عادية، من توزيع بعض العناصر الأسلوبية توزيعا غير متعادل مما يلفت النظر إليه، كأن تكثر مثلا الاستعارة في جزء من النصوص وتقل أو تنعدم في بقاء أجزائه، أو كان يتكرر عنصر أسلوبي ما... إلى غير ذلك من تسلسلات متشابكة ومعقدة من الجمل يشكل بناؤها انزياحا غير مألوف على مدى نصوص المجموعة.